

مجلة المجلات

درس الآداب العربية الحديثة

نشر المترجم افناطوس كراشوفسكي ' في مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق : كانون الثاني ١٩٣٠ م ص ١٧) بحثاً خافياً في «درس الآداب العربية الحديثة» ومناهجه ، ومقاصده في الماضي ، اودعه الملاحظات القيمة عن تفصيل ادباء العرب ، في الشرق والغرب ، في ما يخص الاهتمام بأدبهم الحديثة . وبعد ان قدم كلاً في صلاحية تقسيم تاريخ الآداب الى اطوار ، قسم ملاحظاته الى ثلاثة اقسام : ١ - قلة الابحاث في تاريخ الآداب العربية الحديثة . ٢ - احوال الابحاث في تاريخ الآداب بين الامم الاخرى . ٣ - تنوع المناهج والاساليب لدرس تاريخ الآداب في الماضي . وقد رأينا ان تقتطف شيئاً من توطئه ، قال (ص : ١٨) :

ولائل ان يأتنا سراً ثانياً هل يجوز لفراد طور مخصوص نسيه طور الآداب الحديثة وهل هو الا صلة الأطوار المتقدمة ولا فرق بينها . ويحتج له ان يسأل ذلك لان تقريق الأطوار في حياة كل فرد او مجتمع او فكر شيء . خطر . وكل طور يتصل بانيه بطريق خفي وبمخيوط لا ترى ولا حد محسوس بين طور وطور وقد قلنا سابقاً انه لا فرق بين مناهج درسه . ومع ذلك فانا لا نرى انساناً او نباتاً يشبه نفسه في أطواره المختلفة قام المشابهة وعليه فلا مندوحة لتقسيم حياته الى أطوار كما لا مندوحة لأطوار في تدريس اي شيء . كان وان كانت الأطوار بنات خيالية تبنيها الافكار سهلاً للدرس والنظر الاجمالي . ولا يشك احد ان الطور الجديد لا يتبدى من نقطة محسوسة معينة بل يتدرج عماً قبله تدريجاً . وهذا لا يمنعنا من ان نأخذ وقعة تاريخية حداً لطور ما ولا سيما اذا كان لهذه الوقعة تأثير ظاهر في الطور القديم . وفي تاريخ الآداب العربية الحديثة نرى وقعة من هذا الجنس وهي حملة الفرنسيين على مصر بقيادة نابليون التي جرت على الشرق العربي نتائج همة منها سياسية ومنها اقتصادية ومنها ادبية ووصلته بأوربة بصلة لم تنقطع في وقت من الاوقات الى ايامنا هذه . نعم ان المراحل في الشام وان كانت بدأت مع اوربة قبل القرن التاسع عشر بكثير الا انها توطئت بعد فتح المدارس المتنوعة وخصوصاً في

لبنان وبيروت . وهذا ما يدعوننا لان نقضى . بدور الآداب العربية الحديثة من النصف الاول للقرن الماضي وان لم نفس ما قلناه سابقاً من وجوب الاحتياط في تقسيم الاطوار وعن عدم الفرق في مناهج البحث كلها .

الانفراد بالرأي في الادب

وفي المجلة نفسها (شباط ١٩٣٠ : ص ٩٢) باشر الاستاذ شفيق جبيري طبع سلسلة محاضرات كان قد ألغاهما في كلية الآداب ، في دمشق . نشر منها في هذا العدد ثلاثاً ضمن الأولى « بالادب : افقه . فله . غايته » ، والثانية «بتقافة الذوق : دراسة المصادو الادبية . الانفراد بالرأي في الادب» ، والثالثة «بتأرجع الثقافات» . فكان في أكثرها مراءاة للاستاذ غوستاف لانسون ، الناقد الفرنسي المعروف ، فوسع بعض آرائه مرقباً ايها من مثال ساميه ، باللوب واضح ضمنه الكثير من المفاتيح البديعية التي ان افادت بجمل الطلاب ، فقد لا تفيد كثيراً جمهور الادباء ، ومعرفة هذه المفاتيح مقرونة بعدم حتى يظهر أن التوسع فيها ، والبرهان عنها ، من باب تحصيل الحاصل . على اننا لا نعلم الاستاذ جبيري في ذلك ، لان الاعمال بالنيات ، ونية صالحة . ولكننا نود ان نذكر بعض الملاحظات ، لا على تحديده للادب ، ولا على عدم تحديده للذوق ، فجاءنا اليوم اضيق من ان يتسع لذلك ، بل على آرائه ، او آراء لانسون ، في ما ضمن « الانفراد في الادب » . قل الاستاذ رأياً لانسون في هذا المعنى وعلّق عليه قائلاً : (ص ١٢) :

هذا ما قاله لانسون ومن قوله هذا يتبين لنا اننا اذا اردنا الكلام على المتنبّي مثلاً لزمنا ان ندرس شعر المتنبّي نفسه دون ان نردّد ما قاله . فيه . بعض الاساتذة كالتعالي والجرجاني وغيرهما ، اذا اردنا الكلام على حسن المتنبّي لزمنا ان ندل على مواطن هذا الحسن وعلى طبائعه من دون ان نستمر كلام غيرنا والمخلصة اذا حاولنا دراسة المتنبّي وجب علينا ان نقرأ شعره وندون الآثار التي تركها فينا هذا الشعر وننقل هذه الآثار الى غيرنا حتى يكون في كلامنا شيء من الروح والحياة وعلى هذا ينمو ذوقنا في الادب ومتى غا هذا الذوق غا معه الشعور بالجمال .

اني لا ارى اضل سبيلاً من الذين لا يريدون ان يتفردوا بآرائهم في الادب . وعلى الخصوص بعد ان عرفنا ان الادب ليس فيه حقائق مبنية على اصول مستندة الى عقل اي ليس فيه شيء . من حقائق العلم الثابتة وانما الادب يتبع الذوق والملاحظة فتغير آراء الناس فيه بتغير اذواقهم وعواطفهم انظروا

مثلاً الى « فيكتور هوغو » فقد قال فيه « فاكه Faguet » « هوغو من الخالدين لان جمال الاسلوب هو الذي يخلد » وقال فيه اناتول فرانس : « ان مجده الشاعر الذي احتفل امس آخر احتفال بوفاته يأتي عليه اليوم دهر صعب حرج لقد ذهب اعجاب المعجبين به الذين كلوا واعبوا بعد ان جهدوا في ذلك الاعجاب خمس عشرة سنة ، وتبددت طائفة من الارهام فقد كانوا يظنون ان شاعراً كبيراً فكر اكثر من ذلك » . انظروا الى تناقض هذين الرأيين في شاعر مثل « هوغو Hugo » ومنه يتبين لكم قلق الادب واضطرابه فاذا كان الامر كما وصفنا فما أجدد الذين يريدون ان يذوقوا لذة الادب بالانفراد بأرائهم دون ان يكون لغيرهم سلطان عليهم .

لا يخفى على الاستاذ الفاضل ان في الفن الادبي طائفة من العوامل « مستندة الى العقل » خالدة بخلود الجمال ، لان الادب لا يقوم فقط « باتباع الذوق والباطنة » والا فهو متقلقل مضطرب ، ولا يخفى عليه ان هذه العوامل تؤثر فيما « عند درسا كاتباً او شاعراً » الاثر فيه التي تكون قد اثرته في من تقدمنا من الدارسين . فن باب اضاءة الوقت اذا ان يفرد كل منا في احكامه ، وان يبدأ « من النقد الادبي بنفسه » . هذا فضلاً عن انه ليس لكل ناقد من حسن الذوق ما يكفل له الوصول الى الحقيقة النقدية في اقراءه الشخصي ، وان يكن هذا المذهب قد نجح مع جول لومتر ، او من م على شي . من ذوق جول لومتر ، فلا ينجح مع الكثيرين غيره . من الحسن ان نستل بالمحكم الشخصي ، ولكن ذلك يكون بسد الاطلاع على احكام من تقدمنا . لانه لو لم يكن في عرض رأينا على رأي الغير ألا نتجيتنا من الاداء . والتجيج بقدرتنا على اكتشاف كل شي . لكفها !

اما مثل الخلاف بين فافيه وفرانس في الحكم على فيكتور هوغو الذي اختاره الاستاذ جبري وظنه حجة لكلامه ، فهو ابد من ان يزيد ذلك الرأي . ومن التريب ان لا يرى الاستاذ ان الخلاف بين الناقدين كان سببه اختلاف وجهة النظر ؛ بل لاختلاف بينهما ، اذ ان الخلاف والاتفاق لا يكونان الا بالنسبة الى شي . واحد مشترك بين الاسرين . ونحن نرى ان فافيه نظر الى اسلوب هوغو ليس غير ، واصدر حكمه بالنسبة الى هذا الاسلوب فقال : « هوغو من الخالدين لأن جمال الاسلوب هو الذي يخلد » . اما اناتول فرانس فنظر الى قية الشاعر الفكرية ، ولما رأها ضئيلة ، اصدر حكمه الشديد ، فبدد « طائفة من اوهام من كانوا يظنون ان شاعراً كبيراً فكر اكثر من ذلك » . ولو اردوا لنا الاستاذ حكم فرانس على اسلوب هوغو ، ار حكم فافيه على قية هوغو الفكرية لكان مجال للمقابلة ، فللخلاف او للاتفاق .

ومهما يكن من امر فالتا نرسل السرور اذ نرى اخواننا ادباء دمشق ينصرفون عن التقليد المقيم ، فيحولون ابصارهم الى الامام . . .